مجلة الآداب واللغات، المجلد 21 ، العدد 1، 2021،ص ص:82 – 88

مجلة الآداب واللغات
جامعة أبي بكر بلقايد،تلمسان / الجزائر
ISSN : 2676-1963/ EISSN: 2676-167X
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/416

الاستدعاء في شعر أبي تمّام

The summons in Abu Tammam's poetry

د.غنية تومي*، جامعة محمد خيضر - بسكرة ، الجزائر .البريد الإلكتروني:ghania.toumi@univ-biskra.dz

تاريخ المقال

الإرسال:2021-05-20 القبول:2021-07-05 النشر:2021-10-28

الكلمات المفتاحية

أبو تمّام
الشّخصيات
العبارات الاصطلاحيّة
استدعاء
المساق

ملخص البحث

يسعى هذا المقال إلى بحث ظاهرة الاستدعاء في شعر أبي تمّام، شاعر العربيّة الأوّل؛ إذ يتّضح جليّا لمتلقّي شعره توظيفه لنمطين من المستدعيات؛ أسماء الشّخصيّات، والعبارات الاصطلاحيّة المعروفة لدى المتكلّم العربي، يجلبها من المخزون الجمعي المعهود مستغلّا الشّحنات الدّلاليّة، والإيحاءات التي تقبع بين ثناياها، فكلاهما يمثّل سجلّا حافلا بالأحداث والوقائع التي يمكن للشّاعر المفوّه من مثل أبي تمّام تطويعها، للتّعبير والاقتصاد في الكلام وحتّى تمكّنه من إغماض معاني شعره بغية حثّ المتلقّي على إعمال الذّهن والفكر لتصيّد المعنى الشّعريّ الذي يروم، وسيضطرّ هذا المتلقي إلى تفعيل أداة هامّة هي المساق أو السّياق الحالي وتحديدا السّياق الثّقافي والخبرة المشتركة بين جموع المتكلّمين؛ فكثيرا ما نجد المخاطَبَ عندما يصادفه اسم علم أو شخصيّة معروفة، أو عبارة اصطلاحيّة، يستند إلى المعطيات المعرفيّة المشتركة، وإلى ما تحيل إليه تلك الأسماء والأقوال المأثورة في الفهم الجمعي، والبيئة اللّغويّة العربيّة. لنصل في نهاية الدّراسة إلى أنّ أبا تمّام استدعى تلكم الأداتين، فعبّر عن الكثير بالقليل، و اقتصد في اللّغة و وفّى بالغرض الشّعريّ فأجاد، وأنّ المخاطَب، والحال هذه، مطالَب بتجاوز المعنى في حدود سياقه اللّغوي، إلى مديات أرحب تمثّلها ثقافته، وخبراته اللغويّة التي ينسجها المخيال العربيّ والرّكام المعرفي الجمعيّ ممثّلا في المساق، بمختلف حيثيّاته وتفاصيله.

Keywords

Abou Tammam
personalities
Idioms
summons
Context of situation

Abstract

This article seeks to examine the phenomenon of summons in Abu Tammam's poetry, as it is clear to the recipient of his poetry that he employs two patterns of summonses; Both represent a track record of events and facts that an empowered poet like Abu Tammam can adapt to express and economically speak, and the recipient will be forced to activate an important tool, namely the context of situation, specifically the cultural context and experience shared by the audience of speakers, depending on the knowledge data. common, and to what those names and sayings refer to in collective understanding, and the Arabic linguistic environment. Let us reach at the end of the study that Abu Tamam expressed a lot little, and frugal in language and in the poetic purpose of excellence, and that the speaker, and in this case, demands to go beyond meaning within the limits of his linguistic context, to broader ranges represented by his culture, and his linguistic experiences woven by the Arab imagination and collective cognitive rubble represented in the course, in its various terms and details.

* المؤلف المرسل

1. مقدّمة

يعدّ الاستدعاء من أهمّ التّقنيات التي يلجأ إليها المبدعون والشّعراء خاصّة؛ تعرّف بأنّها شكل من أشكال الإشارة التي يُسْتَحْضَر من خلالها المستدعَى اللّفظيّ بما يحمله من رمزيّة لدوافع عدّة أهمّها التّعبير عن حالة نفسيّة أو شعوريّة خاصّة يعيشها المتكلّم، أو لسبب ثقافي؛ إذ يساهم المستوى الثّقافي بشكل إيحائي ليفتح للشّاعر آفاقا أوسع في توظيف التّراث بأنواعه؛ فقد توحي له لفظة تراثيّة من مخزونه الثّقافي بإبداع نصّ شعريّ، وتفتح له أفقا كان غائبا عنه، لتشكّل هذه اللّفظة التّراثيّة مثيرا يجد الشّاعر نفسه مندفعا إلى التّفاعل معه بصورة نصّ شعريّ، وقد تكون هذه اللّفظة أو العبارة جزءا من بيت شعر أو مثل أو عبارة اصطلاحيّة متداولة أو خطبة أو غيرها. وسنركّز في هذه المحاولة البحثيّة على شكلَيْن من أشكال هذه التّقنيّة، هما: استدعاء أسماء الأعلام أو ما يعرف في مسلك النّقاد بالإشارة الاسميّة، واستدعاء العبارة الاصطلاحية أو الإشارة بالحدث؛ وستكون أشعار أبي تمّام حاضرة بوصفها مدوّنة نراها صالحة لمثل هذا الطّرح، كيف لا وهو شاعر العربيّة الأوّل، ورمز الغموض الشّعريّ المنبئ عن قريحة وقّادة، استلهمت من خبراتها التّراكميّة الكثير، لنجيب عن التّساؤل المشروع: هل وفّق أبو تمّام في توظيفه لمثل هذه التّقنيّة ؟ وهل تبنّى النّقاد مسلكه فيها فوافقوه الطّرح أم وجد أقلاما حادّة لم تستسغ استلهامه من وحي التّراث الثّقافي واللّغويّ؟ وهل شكّلّ المساق أداة مطواعة في يدّ المتلقّي وهو بصدد فهم شعره الذي عرف عنه غموضه؟. وقبل البدء، لابدّ من تحديد ماهية الأداة التّحليليّة التي سنشرّح بها نصّه الشعريّ، ألا وهي المساق؛ حيث إنّ الاعتماد على السّياق اللّغوي بقرائنه اللّفظيّة في مثل هذه النّوع من النّصوص المستجلبة لألفاظ وعبارات بعينها لن يجدي نفعا كما سنرى؛ ونضطرّ حينها إلى توسّل المساق أو سياق الحال بحيثياته من أجل الوقوف على الدّلالة القصد ومبتغى الشّاعر وهو بصدد تفعيله لمثل تلك التّقنيّة.

يقصد بالمساق كلّ التّفاصيل والحيثيّات غير اللّغوية التي تحيط بالملفوظ أيّا كان نوعه ونمطه، ويتكوّن في عمومه من عناصر رئيسيّة ثلاثة لا يشترط اجتماعها مرّة واحدة؛ فقد يحضر جزء و يغيب آخر حسب كلّ نصٍّ أو خطابٍ، وهي ملابَسات الموقف، ومساعدات الكلام من حركات وتعبيرات الجسد المصاحِبَة وأحواله أثناء التّخاطب، **والسّياق الثّقافي** الذي وجدنا أنّ له النّصيب الأوفر في رصد الدّلالة في مثل النّصوص التي حفظتها لنا الكتب ولم تتم معاينة وحضورا، ويشمل الاعتقادات والأعراف والتقاليد والمعلومات التاريخيّة المشتركة بين أفراد البيئة اللّغويّة الواحدة (علي، 1993، صفحة 137 ومابعدها)

2. استدعاء الشّخصيات والمساق

يوحي لفظ الاستدعاء بمعنى نقديّ لا نرومه في هذه الدّراسة اللّغويّة التّداوليّة، فهو في منظور النّقاد "ألّا يكون للقافية فائدة إلّا كونها قافية فقط، فتخلو حينئذ من المعنى كقول عدي القرشي، أنشده قدامة:

وَوُقِيتَ الحُتُوفَ مِنْ وَارِثٍ وَالٍ،

وَأَبْقَاكَ صَالِحًا رَبّ هُودٍ

فإنّه لم يأت لهود النبي عليه السّلام ههنا معنى إلّا كونه قافية" (القيرواني، 1981، صفحة 73/2) . وبالتّالي مبتغانا منه دلالته على استحضار الشّخصيات في أثناء الفعل الإبداعي، استغلالا لما تحمله من طاقات إيحائيّة تفيد في تقوية الدّلالة ومنه التّأثير في المخاطَب أكثر. وقد كان لشعرائنا منذ القديم باع طويل في مضمار استدعاء الشّخصيات التّراثيّة، ولم يكن غالبا ذكر اسم هذا أو ذاك من باب التّرف اللّفظي؛ حيث إنّه لكلّ شخصيّة معروفة تاريخ حاو لملامحها وأبعادها في مجتمعاتها، يمتاح منها الشّاعر الحذق ما يضفي على قصيدته زخما دلاليّا إن هو أحسن الاستدعاء، وأجاد الاستلهام، وهو في ذلك مطمئن إلى استعانة المتلقي وتوظيفه لما يحفّ تلك الشّخصيّة من معان ، ولاستناده إلى التّفاصيل غير اللّفظيّة التي تعينه في اقتناص الدّلالة ورصد القصد. و من الأهمّية بمكان، الإشارة إلى أنّ توظيف أسماء الأعلام في الشّعر العربيّ يشي، إذا كان له ما يبرّره، بقوّة الصّنعة الشّعريّة، وإلّا عُدّ حشوا، سببه ادّعاء المعرفة وسعة الاطّلاع، أو مجرّد زينة وبهرجة لا توحي بغير ذلك، بيْد أنّ متصفّح شعر أبي تمّام سيلمس بجلاء تزوّده في أشعاره من تجارب السّابقين للتّعبير عن خوالج وجدانيّة وحياتيّة، فيتعمّد إثارة ذهن المتلقّي، وإلجائه إلى إعمال الفكر، عبر استدعاء أسماء بعينها لشخصيات مرّت في التاريخ وسجّلت لها حضورا بطريقة أو بأخرى، وكان للسِّياق الثقافيّ الاجتماعيّ يد فاعلة فيها ألا وهي استخدامه أسماء عربيّة مشهورة بشيء أو أمرٍ ما، علِقت بالأذهان، وصار توظيفها بما تُحيل إليه أو تُشير له أداة لخدمة

المعنى الذي يريد الشَّاعر و المتكلّم عموما إيصاله؛ فقد وردت في ديوان أبي تمَّام طائفةٌ أسماء أعلام لا يستطيع المتلقيّ معها فهم البيت أو الأبيات دون الاستعانة بالسِّياق الثقافيّ والخبرة اللّغويّة المشتركة، من خلال معرفة ما يلفّ بذلك الاسم من تفاصيل، أو الحادثة المشهورة التي صاحَبَت تلك الشّخصية، فجعلتها تشيع بين صُنوف المتكلّمين، وتُستَخدم لأغراض إبلاغيّة بلاغيّةٌ متنوّعة.

ومن ضمن ما تمثَّل به أبو تمَّام قوله (أبوتمّام، 1970، الصفحات 274/3-275) :

حَازُوا خَلاَئِقَ قَدْ تَيَقَّنَتِ العُلَى

كُلَّ التَّيَقّنِ أَنَّهُنَّ نُجُو مُهَا

لَوْ أنَّ بَاقِلاً المُفَهَّه يَنْبَرِي

فِي مَدْحِهَا سَهُلَتْ عَلَيْهَ حُزُومُهَا

البيتان من قصيدة مدحيّة، قالها أبو تمَّام في ثلاثة نفرٍ من أصحاب " عبد الله بن طاهر " أمير خراسان، وأراد أن يصِفَ أخلاقهم فقال بأنّهم امتلكوا من حُسْن الأخلاق ما جعلهم كالنّجوم للّيالي ، تزيّنها كما تزيّن النّجوم السّماء ، ثُمّ ذكر " با قلا " الذي لا يستطيع المخاطَب معرفةَ معناه من السِّياق اللغويّ دون أنْ يعود إلى حكايته أو ما يُعرَفُ عنه .

وقد أتى في الشّروح ذكرُ قصّته التي صارت مثلاً من الأمثال، فيقال : " أعيا من باقل "، أمَّا شاعرنا فقد ذكر الاسم ، واكتفى بإخبارنا عن فَهَهِهِ . و الفَهُّ هو كليل اللّسان ، العيّ عن حاجته (ابن منظور، 2005، صفحة مادة (ف ه ه)) . إيجازًا منه واعتمادًا على معرفة المتلقيّ بما يُحيل إليه ذكر اسمه ، لكونه مثلاً تتناقله الألسن وتضرب به .

وذكرت الشّروح أنَّ باقلاً رجلٌ من بكر بن وائل يُضرَب به المثل في العَيّ ، ومِنْ عَيّهِ يُحكَى أنَّه اشترى مرَّةً ظبيًا أو عيرًا بأحد عشر درهمًا ، فسُئِل عن ثمنه على صنفه ، فنَشَرَ أصابعه، وأخرَجَ لسانه لِتَكْمُلَ العدّة، فَفَلَتَ الظّبي. ولا غَرْوَ أنَّ فهمَ التَّركيب الشعريّ يرتهن في وجوده إلى مراعاة تلك الجزئيّة التي تعدّ من قبيل السِّياق غير اللغويّ ، وبتضافرها مع السِّياق اللّغويّ نستشف أنَّ أبا تمَّام أراد أنْ يقول إنَّ خلائق أولئك النّفر من حسنها لو أراد المُفَهَّه العيّ من مثلِ باقلٍ وصفها لاهتدى إلى وصف صعبها فكيف سائرها .

ولم يكتف بذكر باقلٍ في القصيدة عينها، بل أضاف اسما آخر في بيت لاحق على وجه المقابلة ، قائلاً (أبوتمّام، 1970، صفحة 275/3) :

وَ لَوْ أنَّ سَحْبَانًا يَسْحَب ذَيْلَهُ

فِي ذمِّهَا لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَذِيمُهَا

ويمكن استنتاج معنى البيت بمقابلته بسابقه، إذ رأينا فيه العَيَّ كليل اللّسان يشتدّ لسانه ويقوى بحيث يصف أصعب الأوصاف ، ويُجيد الوصف ، ثُمَّ أعقب الشَّاعر ذلك بذكر (سحبان) ، ولم يقتصر الأمر على مجرّد التّجنيس بين(سحبان) و(يسحب)، بل رام به كلّ ما يوحي به ذلك الاسم من معاني البلاغة والبيان وقوة الخطابة ، والعلم بإيحاء الاسم لا يتأتَّى لكلِّ مستمعٍ، وعليه ؛ فالمخاطَب لن يقف عند حدود السِّياق اللّغويّ، لأنّه غير كافٍ، ولا بُدَّ له من سبْر ما وراء اللّفظ من خلال الخطوة ذاتها، أي بالاتِّكال على فحوى قصّة صاحب الاسم المذكور ، وعندها فقط يعلم أنَّ سحبانًا هذا رجلٌ من وائل بليغٌ لَسِنٌ ، يُضرَب به المثل في البيان والفصاحة؛ فيقال (أفصح من سحبان وائل) و(أخطب من سحبان وائل) ، وهذا ما جاء في الشّروح ؛ إذ ذُكِرَ أنَّه خطبَ عند مُعاوية ، وبحضور مشاهير الخطباء ، فلمَّا سمعوا خطبته جعلوا يتسلّلون، فضُربَ به المثل .

وعليه فإنَّ معرفة ما سبق عن العَلَمِ المذكور يُضِيء جانبًا هامًّا من الدَّلالة القصْد ، ليتجلّى للمخاطَب أو المتلقيّ أنَّ سحبانًا خطيبُ خطباءِ العربِ لْو سعى لذمِّ أخلاقهم ما استطاع ولا تأتَّى له ذلك ؛ لأنَّه لن يجد فيها عيْبًا .

ونلاحظ أنَّ الشّاعر أسبغ على (سحبان) صفة سحب ذيله، فجعل له ذيلاً يُسحب مجازًا (استعارة مكنيّة) تشبيهًا إيَّاه بذوات الذّيول، ربّما لإقامة جناسٍ بين:(سحبان) و(يسحب).

ويقول في موضع آخر (أبوتمّام، 1970، صفحة 386/1):

إنْ كَانَ مَسْعُودٌ سَقَى أَطْلاَلَهُمْ

سَبَلَ الشُّؤُون فَلَسْتُ مِنْ مَسْعُود

إنّ الطّائي و لِسِمَة الغموض التي تكسو أكثر شعره، ارتأى أن يعمد لاسم هذه الشّخصيّة أو اسم العَلَم **مسعود** رمزا يكنّي به عن حال من أحوال نفسه؛ وقد وقف الآمدي مفسّرا شارحا، متتبّعا اسم مسعود في المعروف من شعراء القبائل،ولم يجد فيها أحدا بكى على الدّيار فذكر أنه استغلق عليه معنى البيت مدّة طويلة، حتّى قرأ في شعر ذي الرّمّة :

عَشِيَّةَ مَسْعُودٍ يَقُولُ وَقَدْ جَرَى

عَلَى لِحْيَتِي مِنْ وَاكِفِ الدَّمْعِ قَاطِرُ

فعلم أنّ أبا تمّام إنّما أراد مسعودا هذا أخا ذي الرّمّة؛ أي استدعى اسم هذه الشّخص لأنّه كان ينكر على أخيه ذي الرّمّة

البكاء على الدّيار ونهاه عنه. يقول :" فأراد أبو تمّام إن كان مسعود الذي أنكر على ذي الرّمّة البكاء ونهاه عنه قد رأى أنّ البكاء أحسن بعد أن كان عنده غير حسن، فلست منه" (الآمدي، 1992، صفحة 263/1)، وفضلا عن ذلك، فهذا من المتخيّل الطّللي حيث الشّاعر أحوج ما يكون فيه إلى اسم علم أو رمز يكنّي به عن حال من أحوال نفسه.

3. استدعاء العبارات الاصطلاحيّة والمساق

تضمّ اللّغة العربية نمطا خاصّا من التّراكيب يتّسم بالقِصَر ووفرة الدلالة في آن واحد، و لا يمكن الوصول إلى دلالتها لَوْ لَمْ يُدرج لنا اللغويّون والعلماء أسباب قولها، أو ظروف إنشائها وإنشادها، والاكتفاء في بحث معناها عند مستواها اللّفظيّ لن يُجدي نفعًا. تعرّف بأنّها "تلك العبارات التي لا يُفهم معناها الكُلّي بمجرد فهم معاني مفرداتها وضمّ هذا المعاني بعضها إلى بعض" (عمر، 2006، صفحة 33) ، أو مجموعةُ كلمات تُكَوّن بمجموعها دلالة غير الدّلالة المعجميّة لها مفردةً ومركبةً، وهذه الدلالةُ تأتيها من اتّفاق جماعةٍ لغويةٍ على مفهومٍ تُحمّله لهذا التّجمّع اللّفظي (صيني، 1996، صفحة ح)

و من لغويّينا القدامى الذين صنّفوا مؤلّفا خاصًّا بهذه الظاهرة اللغويّ" أبو منصور الثّعالبيّ " (ت429ه) في كتابه الموسوم بـ (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب) الذي تضمّن "أشياء مضافة ومنسوبة إلى أشياء مختلفة، يُتَمَثَّل بها ، ويكثر في النّثر والنّظم وعلى ألسن الخاصّة والعامّة استعمالها، كقولهم : غراب نوح ، ونار إبراهيم (...) ويوم عبيد، وعطر منشم (...) وما منها إلا ما يتعلّق من المثل بسبب، ويوفُي من اللّغة والشّعر على طرف، ويضرب في التّشبيهات والاستعارات بسهمٍ ، ويأخذ من الأخبار والأنساب بقسْمٍ، ويجيل في خصائص البلدان والأماكن قدحًا، ويجري في أعاجيب الأحاديث شوطًا..." (الثّعالبي، 1965، الصفحات 3-5) ؛ فالثّعالبيّ يعتمد في تفسير هذه المضافات والمنسوبات على الوسائل الآنفة الذّكر، والتي من بينها العودة إلى أخبار العرب وأيّامها وطرق عيْشها وأفكارها المشتركة واعتقاداتها وكذا الأعراف والتّقاليد المُشَاعة بينها، ولهذه الأمور دور كبير في فهم المقصود؛ فالملتقيّ للعبارة الاصطلاحيّة " ثياب مرو " على سبيل المثال، من المؤكّد أنّه لن يفهم منها سوى: معنى الثيّاب المعروف، و(مرو) أنّها بلدٌ ، وليس هذا هو المقصود من إضافة ثيابٍ إلى مرو، فللأمر صلةٌ بعادات العرب في تسمية الأشياء واتّفاق في ذلك، يقول الثّعالبيّ :"...كانت العرب تسمّي كلَّ ثوبٍ صفيقٍ يُحْمَلُ من خراسان: المرويّ، وكلّ ثوبٍ رقيقٍ يُجلَب منها: الشّاهجانيّ ؛ لأنَّ (مرو) عندهم أمُّ خراسان، ويقال لها : مرو الشّاهجان، وقد بقي إلى الآن اسم الشّاهجان على الثّياب الرقيقة، وممّا تختص به مرو من الثّياب: الملحم... " (الثّعالبي، 1965، صفحة 542)، ومن أمثلته كذلك عبارة "نار الحلف" التي يتعلّق معناها بمعتقدات العرب و أيّامها وسلوكها في حروبها، يقول: (نار الحلف) هي التي كانت العرب توقدها عند التّحالف، فلا يعقدون حلفهم إلا عندها، ويذكرون عند ذلك مرافقها، ويدعون الله على مَن ينقض العهد بالحرمان من منافعها، وربّما دنوا منها حتى تكاد تحرقهم، ويهولون الأمر فيها... " (الثّعالبي، 1965، صفحة 577) ، والمخاطَب الذي يصادفه هذا المَثَل في جملةٍ أو بيتٍ ما لَنْ يفهم المقصود دون العوْدة إلى السّياق الثقافيّ والتاريخيّ للعبارة حتىَّ تتّضح الصّورة وتظهر الدلالة المرجوّة ؛ لأنَّ جهله بها سبب كاف لأنْ يغمُض الكلام برُمَّتِهِ .

و كثيرٌ هُمُ الشّعراء الذين يتمثّلون بهذه التّراكيب في أشعارهم معتمدين على علم المتلقيّ بقصّتها أو حكايتها في التّاريخ، أو معرفته بِصِلَتِهَا بأفكار وأعراف العرب وغير ذلك ممّا يدخل في إطار السّياق غير اللغويّ، والثقافيّ خاصةً. و هذا ما سنراه في نماذج من شعر أبي تمّام يظهر فيها توظيفه لبعض العبارات الاصطلاحيّة والأمثال مستغلاً ما تحمله بين ثناياها من معان كثيرة بألفاظ قليلة.

يتوسّل أبو تمّام بعض العبارات الاصطلاحيّة التي تزخر بها كتب الأمثال مستغلّا ما تحمله من المعاني الكثيرة بمَا يتواءم وغرضه، فتُغنِيه عن التّفصيل والإفاضة ، ومن قبيل ذلك قوله (أبوتمّام، 1970، الصفحات 249/2-250) :

أَبْلَيْتَ هَذَا المَجْدَ أَبْعَدَ غَايَةٍ
فِيهِ وَ أَكْرَمَ شِيمَةٍ وَ نِحَاسِ
إِقْدَامَ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ
فِي حِلْمِ أَحْنَفَ فِي ذَكَاءِ إِيَاسِ
لاَ تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ
مَثَلا شَرُودًا فِي النَّدَى وَ البَاسِ
فَاللهِ قَدْ ضَرَبَ الأَقَلَّ لِنُورِهِ
مَثَلاً مِنَ المِشْكَاةِ وَ النِّبْرَاسِ

فأبو تمّام أراد في سياق مدحه لأحمد بن المعتصم (ابن الخليفة) أنْ يشبّهه في علوّ مجده وبُعْدِ الغاية فيه، بأعلامٍ

ذاع صِيتُهَا بيْن العرب حتَّى صارت مضرب أمثالهم، والحال كذلك هنا ؛ إذ تمثَّل الشَّاعرُ بأولئك للمبالَغة في وصفه .

والمخاطَب لا تعنيه معرفة المعاني المعجميّة لـ : إقدام ، وسماحة ، وحِلم ، وذكاء، وإضافتها للأعلام: عمرو ، وحاتم، وأحنف ، وإياس ؛ لأنَّ هذا ليس ما أراده المتكلّم ، ومن أجل ذلك لا مناص من اللّجوء إلى القصّة من تلك الأمثال عند العرب، وهو أمر خارج عن حدود التَّركيب الكلاميّ أو الملفوظ الشّعريّ ، وأَدْخَل في سياق الثّقافة والمعرفة المشتركة بين جمهور المتكلّمين .

ولتلك الأهميّة ، نلفي الشّارحين يُشيرون إلى ذلك حتَّى تستبين أوجه الشّبه التي عقدها الشَّاعر بين ممدوحه وتلك الشّخصيات ؛ فالممدوح في إقدام عمرو بن معدي كرب ، في مِثْل سماحة حاتم بن عبد الله، في مثل حِلم الأحنف بن قيس ، في مثل ذكاء إياس بن معاوية وفطنته وبديهته .

أمَّا قوله : (لا تُنكِروا ضربي . . . النّبراس)، فتذكر الكتب ومنها شروح ديوانه أنَّ ذينك البيتين لَم يكونا في الأصل ضمن أبيات القصيدة ، وإنَّما أضافهما الشَّاعر ارتجالاً لمّا ذكر له يعقوب بن إسحاق الكنديّ الفيلسوف بأنّه شبَّه الممدوح بأجلاف العرب، والأمير أكبر ممَّن شبّهه به بقوله :" ما صنعت شيئا، شبّهت ابن أمير المؤمنين و وليّ عهد المسلمين بصعاليك العرب. ومن هؤلاء الذين ذكرت ؟ وما قدرهم ؟ " ، فارتجل أبو تمَّام هذين البيتين ، وعَجِبَ الحضور لفطنته وسرعة بديهته، واستصدر الممدوح أمرًا بمضاعفة جائزته (القيرواني، 1981، صفحة 192/1).

وظاهرٌ أنَّ هذه الحادثة المصاحِبَة للقول هي سياق غير لغويّ اشتمل على :

- ذكر للحضور ومنهم الفيلسوف الكنديّ و خادم الأمير .
- ردّ فعل الكندي واستصغاره قدرة الشَّاعر على مدحه الأمير .
- تدارك الشَّاعر الأمر ، وارتجاله البيتين ببراعة .
- ردّ فعل كلّ الحضور المتمثّل في إبداء إعجابهم بفطنة أبي تمَّام وسرعة خاطره .
- ثم ردّ فعل الممدوح بمضاعَفَة عطيَّته للشّاعر .

وهي كلّها مكوّنات السّياق غير اللغويّ المساوق للقول الشّعريّ ، وأثرها في توجيه مقاصد المخاطِب.

والحقيقة أنَّ حدوث مثل هذا نادرٌ ؛ لأنَّ شِعر شاعرنا مكتوبٌ مقيّدٌ ، فبالتّالي ضاع منه جزءٌ هامٌّ من معانيه أو أدوات رصد معانيه وسُبُل امتلاكها ، واقتصرَ توفُّرُ ملابسات القول في حدود الأبيات المفردة أو المقطوعات القصيرة كما في المثال السّابق .

ومن النّماذج التي تمثّل فيها أبو تمَّام بالمشهور من العبارات الاصطلاحيّة، قوله (أبوتمّام، 1970، صفحة 392/1)

لَمَّا أَظَلَّتْنِي غَمَامُك أَصْبَحَتْ

تِلْكَ الشُّهُودُ عَلَيَّ وَهِيَ شُهُودِي

مِنْ بَعْدِ مَا ظَنُّوا أَنْ سَيَكُونُ لِي

يَوْمٌ بِبَغْيِهِمْ كَيَوْمِ عَبِيد

وبالطّريقة نفسها تُفتَح مغاليق الكلام، فعبارة (يوم عبيد) تحتاج إلى تفسيرٍ؛ لأنَّ معناها لا يستقيم بمعرفة معنى اليوم ، ومعنى عبيد ، إنَّما يُسْتَقَى القصْد من خلال علمنا بأنَّه مَثَلٌ من الأمثال ، ضُرِبَ لَمَّا لقي الشَّاعرُ عبيد بن الأبرص النّعمان بن المنذر في يوم بُؤسه الذي كان لا ينجو من لَقِيَهُ فيه ، وصار يُضْرَبُ مثلاً لليوم المنحوس الطّالع ، وإدراكنا لهذا الأمر يُعَدُّ توسُّلاً للمساق أو السَّياق غير اللغويّ ؛ لأنَّ في ذلك خروجًا عن التَّركيب اللغويّ وقرائنه المقاليّة إلى تفاصيل وملابَسات لا كلامية يُستأنَس بها لرصْد المعنى. أراد أبو تمّام أن يقول إنّه لَمَّا ظَلَّلتني غمام عفوك وكريم صفحك، أضحى كلّ شاهدٍ ضدّي شاهدًا لي عندك، بعد أنْ ظنُّوا هلاكي ببَغْيِهِم عَلَيَّ عندك ، وتوقّعوا يوم لقائي بك مِثْلَ يوم لقاء عبيدٍ بالنّعمان .

4. خاتمة

يقودنا البحث في نهايته إلى جمع أهمّ ملاحظه ونتائجه في الآتي:

- رفض أبو تمّام صدأ الكتابة ونادى بجماليّة تشكيل شعريّ، قوامها التّأسيس للغة جديدة، ترفض السّهل المتاح وتنزع إلى النّسج على غير مثال سابق، وتعمد في الآن عينه إلى الرّكام المعرفيّ والتاريخي، تمتاح منه وتستلهم أبرز أعلامه، وتوظّفها أداة طيّعة لمدّ جسور التّواصل مع المتلقّي.

- جسّد المساق بتمفصلاته وسيلة مثلى في عمليّة رصد المعنى وتحديد القصد، وانبنت عليه عمليّة استيعاب الملفوظ الشّعريّ من طرف المتلقّي، وثبت بما لا يدع مجالا للشّك أنّ انسجام المخاطَب مع الحواليّة الثّقافيّة و المعرفيّة والاجتماعيّة المشتركة لهذا الصّنف من الخطاب كفيل إلى حدّ كبير بفكّ المستغلق من خطاب أبي تمّام الذي يعرف بالغموض ويتّسم به في كثير من نواحيه.

- تنبّه أبو تمّام إلى الطّاقات التّعبيريّة التي يمكن أن تحملها أسماء الأعلام المعروفة في البيئة العربية؛ لأنّها تكتنز تجارب وحكايا في الوسع استغلالها حسب حيثيّات وتفاصيل وقائعها.

- استدعاء الأمثال والعبارات الاصطلاحيّة المتنوّعة أو ما يسمّى بتقنية الإشارة بالحدث، يستحضر من خلالها موقفا تراثيّا مشابها لموقف الشّاعر، ويسقط عليه أبعاد تجربته الحياتيّة أو الفنيّة.، فشكّلت منبعا هامّا من منابع إلهامه الشّعريّ.

5- المصادر والمراجع

1- الآمدي أبو القاسم. (1992).الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتري.القاهرة :دار المعارف سلسلة ذخائر العرب25.

2- أحمد مختار عمر. (2006).علم الدّلالة.القاهرة: عالم الكتب.

3- أبو تمّام. شرح التّبريزيّ. (1970). شرح الدّيوان. القاهرة : دار المعارف.

4- الثّعالبي،أبو منصور. 1965. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب.القاهرة : دار المعارف.

5- ابن رشيق القيرواني.1981. العمدة في محاسن الشّعر وآدابه. بيروت : دار الجيل للطّباعة والنّشر والتّوزيع.

6- محمد محمد يونس علي. (1993). وصف اللّغة العربيّة دلاليّا في ضوء مفهوم الدّلالة المركزيّة- دراسة حول المعنى وظلال المعنى. طرابلس : مطابع إديتار.

7- محمود إسماعيل صيني. (1996). المعجم السّياقي للتّعبيرات الاصطلاحيّة. بيروت : مكتبة لبنان ناشرون.

8- ابن منظور الإفريقي.(2005).لسان العرب. بيروت: دار صادر.